حول مسألة: "التاريخ علم أم فن؟" ومدى دقتها

د. تركي بن فهد بن عبدالله آل سعود
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

كان علم التاريخ، كغيره من العلوم الإنسانية، وما يزال عرضة للجدل الدائر في الغرب منذ القرن التاسع عشر الميلادي (عصر التنوير الأوروبي)، حول مدى علمية الدراسات الإنسانية. وسيركز هذا البحث على ما انتقل إلينا من هذا الصراع، مما لم يكن له أن ينتقل. فهناك جوانب في هذا الجدل يعد انتقالها إلينا منطقيًا وطبيعيًا، ولكن الجانب الذي سيتناوله هذا البحث "هل التاريخ علم أم فن؟" ما كان له - في رأيي- أن ينتقل أصلاً؛ لعوامل لغوية كانت السبب في نشأته في الغرب. ولكي يُقَدَّم الموضوع بشكل مترابط متسلسل، لابد أولاً من الحديث عن بداية الحركة العلمية التنويرية في أوروبا، وسوف يكون التركيز هنا على علماء التاريخ. ثم يتناول البحث سبب الجدل اللغوي، ثم يبيّن لماذا نحن في منأى عنه في لغتنا العربية.

(قدم للنشر في ١٤٣٣/٥/٢٤هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٣/٩/٤هـ).

العصر العلمي بأوروبا منذ القرن التاسع عشر الميلادي (الدراسات التاريخية):

لعلنا لا نبتعد كثيرًا عن الدقة إن قلنا إن المؤرخ الألماني ليوبولد ڤون رانكه (ت ١٨٨٦م) (Leopold von Ranke) كان من المحركات الأساسية لإدخال علم التاريخ في أوروبا إلى الجامعات كتخصص مستقل بذاته[١]؛ فقد كان لتقديمه تقنية دراسة الوثائق وألفاظها، وتشديده على التفريق بين المصادر والمراجع، أثرٌ كبيرٌ في أوروبا في حقل الدراسات التاريخية[٢]. وهذا ما أدى إلى اعتبار أن علم التاريخ أصبح "علمًا تطبيقيًا" كغيره من العلوم التطبيقية. كما تُصوِّر عبارة هيربرت آدمز (Herbert Adams) عن قسم التاريخ في جامعتي برلين وجوتنجن (Göttingen)، أنه "تطوّر من حاضنة للعقائد، إلى مختبر للحقائق العلمية"[٣]. وعلى الرغم من الانتقادات التي حاولت نقض هذا التوجه، فإن الفكرة قد تطوّرت بشكل أكبر، فنجد مثلاً ج. ب. بيوري (J. B. Bury) يقول في محاضرة ألقاها في جامعة كيمبردج عام ١٩٠٣م: "واسمحوا لي أن أذكركم بأن التاريخ ليس فرعًا من فروع

(1) Evans, Richard J., *In Defense of History*, New York: W. W. Norton & Com. (2000), p. 14; Stern, Fritz (ed.), *The Varieties of History: Voltaire to the Present*, New York: Vintage Books (1973), Kindle edition, part I, chap. 10.

(2) Evans, p. 15-16; Clark, Elizabeth A., *History, Theory, Text: Historians and the Linguistic Turn*, Cambridge, MA.: Harvard University Press (2004), Nook edition, chap. 1.

(3) Novick, *The Noble Dream*, p. 33 in Evans, p. 17.

الأدب. فحقائق التاريخ كحقائق الجيولوجيا، أو علم الفلك يمكن أن تكون مادة للأدب؛ [ولكنها ليست منه]"(٤).

استمرت هذه المحاولات بين أخذ وردٍّ، وإقدام وتراجع، إلى عشرينيات القرن العشرين الميلادي، عندما أدت الأجندات السياسية، في أوروبا، دورًا كبيرًا في دحض فكرة علمية التاريخ. فبدا أن تلك الأساليب والتدريب العلمي لم يؤثرا أبدًا في إنتاج موقف محايد وموضوعي وحُرٍّ للمؤرخين في أوروبا، تجاه التاريخ المعاصر، وظهر ذلك جليًا خلال النقاش الحاد بين كبار مؤرخي أوروبا الأكاديميين حول موضوع أصل الحروب، ودعمهم جميعًا لأجندات حكوماتهم بأساليب اعتبرها نقادهم أبعد ما تكون عن الأساليب العلمية التي نادوا بها من قبل(٥).

وفي ستينيات القرن العشرين، بدأ مؤرخو أوروبا بالتوجّه مرة أخرى نحو علمية التاريخ بأسلوب جديد. فأدخلوا العلوم الاجتماعية الأخرى كتخصصات فرعية في التاريخ، ومن أشهر أعلام هذه الحركة إدوارد هـ. كار (Edward H. Carr)(٦).

ومع دخول الحاسب الآلي إلى الجامعات، واستخدام العلماء إياه في أبحاثهم العلمية التطبيقية، ظهرت دعوات أخرى بين المؤرخين تنادي باستخدامه في الأبحاث التاريخية؛

(4) Bury, J. B., An Inaugural Lecture: *Delivered in the Divinity School*, Cambridge on January 16, 1903, Cambridge: Cambridge University Press (1903), p. 16.

(5) Evans, p. 24.

(6) Op. cit., p. 32.

لتحقيق العلمية بها، وقسموا التاريخ إلى نوعين: تقليدي، يعتمد على البحث الإنساني؛ وعلمي، يعتمد على استخراج الحاسب للمعلومات وتحليلها، وهذا النوع - كالعلوم التطبيقية - ليس موجهًا إلى عامة القراء، بل إلى دائرة صغيرة من العلماء المختصين[٧]. وهذه النظرة لا تختلف كثيرًا عما دعا إليه هيربرت سبينسر (Herbert Spencer) عام ١٨٥١م، متأثرًا بالتقدم الصناعي والتكنولوجي[٨]. وقد وصف بيرتراند راسل (Bertrand Russell)، في الفترة التي نشأ في جوّها، النغمة السائدة حينما تمنى أن يوضع علم رياضيات للسلوك الإنساني، يوازي رياضيات الآلات في دقته؛ وهذا ما دفع إدوارد كار إلى القول بأن المجتمع في تلك الحقبة كان يُنظر إليه وكأنه آلة[٩].

هذا الخلاف الذي يستمر إلى اليوم حول علمية التاريخ، لماذا نشأ؟ ولماذا هو على أشده في الأوساط الأنجلوسكسونية على الخصوص، دون غيرها؟ ولماذا لا ينبغي لنا في عالمنا العربي أن نخوض في التفضيل بين لفظتي علم أو فن أصلاً؟

أصل الخلاف لغوي:

يشير إدوارد كار إلى بيت الداء مباشرة، عندما يقول عن هذا الصراع الأنجلوسكسوني حول علمية التاريخ: "هذا

(7) Op. cit. p. 33.

(8) Carr, Edward H., *What is History*, (ed.) R. W. Davies, London: Penguin Books (1987), p. 56.

(9) Ibid.

السؤال الاصطلاحي هو بسبب شذوذ في اللغة الإنجليزية. ففي جميع اللغات الأوروبية الأخرى التاريخ مشمول باللفظ الموازي لكلمة (علم - science) [الإنجليزية] بلا تردد"(١٠)؛ إلا أن الخلاف في اللغات الأخرى يتمركز حول علمية مناهج التاريخ، وهي قضية أخرى لا تدخل ضمن اهتمام هذا البحث، إذ هي تتعلق بأساليب دراسة التاريخ.

بدأ الإشكال في اللغة الإنجليزية عند ترجمة اللفظ الألماني (Wissenschaft)، الذي يعني "تخصصًا"، أو فرعًا من فروع المعرفة(١١). فالعلم (science) في اللغة الإنجليزية يعني: "النشاط الفكري العملي المشتمل على الدراسة المنهجية لبُنيَة وسلوك العالم المادي الطبيعي من خلال المراقبة والاختبار"(١٢). ومن الواضح هنا أنه لا حظ للعلوم الإنسانية، بما فيها التاريخ، في هذا التعريف. ويأتي البديل في اللغة الإنجليزية في لفظ "فن - Art"، ومعناه: "حقل دراسة مهتم بشكل أولي بالثقافة الإنسانية"، و"مهارة تكتسب بالدراسة والتطبيق

(10) Carr, p. 56.

(11) Harder, Ernst, *Deutsch-arabisches Handwörterbuch*, Heidelberg: Carl Winter's Universitätsbuchhandlung (1903), p. 774.

(12) Oxford dictionaries, Online ed., s.v. "science." Accessed April 15, 2012, *http://oxforddictionaries.com/definition/science?q=science;* Cambridge Dictionaries, Online ed., s.v. "science." Accessed April 15, 2012, *http:/dictionary.cambridge.org/dictionary/british/science?q=science.*

والمراقبة"[١٣]. فالفرق إذن واضح كل الوضوح؛ فقد انسحب الصراع في اللغة الإنجليزية حول مناهج البحث ومساواتها بمناهج العلوم التطبيقية، على الاسم نفسه الذي يجب أن يطلق على كل منها.

وقد انسحب هذا الخلاف إلى لغتنا العربية: "هل التاريخ علم أم فن؟" وما كان ينبغي أن يشغلنا لو عرفنا مدلولات ألفاظ لغتنا بشكل أفضل[١٤]، فقد بحث بعض المؤرخين العرب عن لفظ في المصادر التاريخية يعكس هذا الاتجاه، فوجدوا ضالتهم عند ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في المقدمة لكتابه (العبر) في قوله: "أما بعد فإن فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال..."[١٥]. واعتقد أولئك

(13) Oxford Dictionaries, Online ed., s.v. "Art." Accessed April 15, 2012, *http://oxforddictionaries.com/definition/art?q=art*; Merriam Webster Dictionaries, Online ed., s.v. "Art." Accessed April 15, 2012, *http://www.merriam-webster.com/dictionary/art*.

(١٤) انظر على سبيل المثال: زريق، قسطنطين، **نحن والتاريخ**، بيروت: دار العلم للملايين (١٩٨٥م)، ص٥٨-٦٣؛ عثمان، حسن، **منهج البحث التاريخي**، القاهرة: دار المعارف (٢٠٠٠م)، ص١٦-١٨؛ الجمل، شوقي، **علم التاريخ: نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه**، القاهرة: دار المعارف (١٩٨٧م)، ص٦٦؛ النبراوي، فتحية عبدالفتاح، **علم التاريخ: دراسة في مناهج البحث**، القاهرة: دار الآفاق العربية (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٣٢-٣٧؛ صبحي، أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر (٢٠٠٤م)، ص١٣؛ النجار، جميل موسى، فلسفة التاريخ، القاهرة: مكتبة مدبولي (٢٠١١م)، ص ١٨؛ طه، عبدالواحد ذنون، **أصول البحث التاريخي**، بيروت: دار المدار الإسلامي (٢٠٠٤م)، ص٢٢، ٢٨.

(١٥) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، **المقدمة**، تحقيق: عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء: د. ن. (٢٠٠٥م)، ١/٥.

المؤرخون أن "الفن" في اللغة العربية مساو لـ (Art)، وليس من العلوم كما هي الحال في اللغة الإنجليزيةً. وهذا واضح في تمييزهم بين اللفظين، بما يفيد تبني المعنى الأنجلوسكسوني لهما، ودفاعهم عن التاريخ كعلم، ونبذهم لنعته بالفن(١٦). ولعل مما أكّد لهم ذلك الحس ما ذكره فرانز روزنثال في كتابه عن علم التاريخ عند المسلمين: "فليس من العجب إذاً أن نرى ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، لا يتكلم عن التاريخ عند تعداده العلوم. ومن الواضح أن سبب هذا الحذف ليس لأن التاريخ، وهو الموضوع الرئيس للمقدمة، قد عولج في عدة مواضع من الكتاب"(١٧). ولكن روزنثال ينتمي إلى المدرسة الأوروبية التي تأثرت بهذا الصراع الأنجلوسكسوني بشكل غير مباشر، فهو لم يتنبه لتكرار ابن خلدون نعت التاريخ بـ "العلم" إلى جانب "الفن"، واستخدامه هذين اللفظين مرارًا لنعت علوم أخرى، منها النظري والتطبيقي. أما القسم الثاني من حديثه عن أن هذا الإغفال للتاريخ لم يكن بسبب أن المقدمة كتاب في التاريخ أصلاً، فقد أحسن الرد عليه سالم حمّيش بقوله حين بيّن أن التاريخ عند ابن خلدون هو "مقدمة المقدمة ودائرة الدوائر"(١٨)، ثم أورد نص ابن خلدون نفسه في ديباجة المقدمة عند حديثه عن التاريخ:

(١٦) انظر الهامش رقم ١٤.

(١٧) روزنثال، فرانز، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، بغداد: مكتبة المثنى (١٩٦٣م)، ص٤٩.

(١٨) حميش، سالم، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، بيروت: دار الطليعة (١٩٩٨م)، ص٣٨.

"وفي باطنه [التاريخ] نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق"[١٩].

فماذا يعني الفن في اللغة العربية، باستخدام العلماء له عند حديثهم عن الفنون؟ الفَنُّ واحد الفنون، وهي الأنواع. والفَنُّ الضرب من الشيء، والجمع أفنان وفنون وأفانين[٢٠]. إذن، الفن في اللغة العربية ليس مماثلاً لمعنى (Art) الإنجليزية؛ وإنما يعني في سياقه الذي ورد عند ابن خلدون وفي كتب العلماء في وقته: ضرب، أي نوع من العلوم، أي المعرفة؛ فالعِلم في اللغة العربية: هو نقيض الجهل[٢١]، ومن ثَمّ فأي كَمّ معرفي هو "علم"، وكل جسم معرفي له خصائصه ومكوناته التي تقيمه بذاته كفرع من فروع المعرفة هو "فن". ولكن يجب التنبيه على أن الالتزام بهذه الدقة في الفصل بين اللفظين كان في المعاجم فقط، أما في الكتب فالعلم والفن

(١٩) ابن خلدون، ٦/١.

(٢٠) ابن دريد، محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين (١٩٨٧م)، ١٦٢/١ (فنن)؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ٣٢٦/١٣ (فنن)؛ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مصر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، ٢٥٨/٤ (الفن).

(٢١) ابن دريد، ٩٤٨/٢ (ع ل م)؛ ابن منظور، ٤١٧/١٢ (علم)؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، القاهرة: المطبعة الخيرية (١٣٠٦هـ)، ٤٠٥/٨ (علم).

هما مترادفان في أحيان كثيرة، وقليل من يفرّق بينهما. وفي حالة التفريق يبقى الفرق هو بين المعرفة "العلم"، والتخصص "الفن"، وليس كما في اللغة الإنجليزية.

ولكي نطمئن إلى أن الحال في الكتب العربية هو ما ذهب إليه البحث، ونتأكّد من عدم تطوّر المعاني لتشمل مفاهيم أخرى، أو ينقلب مفهومها، كما يحدث لكثير من الألفاظ، نورد مقتبسات من مصادر عربية، من مناطق جغرافية مختلفة، وأزمنة متنوعة تثبت أن الكلمة تعني المعنى الذي ورد في المعاجم، ولم يتغيّر:

ولعلنا نبدأ بمقدمة ابن خلدون نفسه، فقد قال واصفًا التاريخ: "فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق"[٢٢]، وقال: "المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ..."[٢٣]، وقال عند حديثه عن الفنون التي يجب أن يتقنها المشتغلون بالمواريث: "ومن المصنفين من يجنح فيها إلى الغلو في الحسبان وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة، والتصّرف في الجذور، وأمثال ذلك"[٢٤]. فلنتأمل هذا النص قليلاً: فالجبر والمقابلة والصّرف هي من فنون الحساب، أي أنواعه وموضوعاته الواقعة تحت التخصص، الجسم المعرفي الواحد الذي هو الحساب. وعلى ضوئها تفيد عبارة ابن

(٢٢) ابن خلدون، ٦/١.
(٢٣) ابن خلدون، ١٠/١.
(٢٤) ابن خلدون، ٢٠٥/٥.

خلدون: "فـإن فنَّ التـاريخ من الفنون التي تتـداوله الأمم والأجيـال" أن التـاريخ أحد مـوضـوعـات العلم (المعـرفـة) وفروعها.

كـذلك نورد نصًـا للسـان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) في ترجمته لمحمد بن أحمد الرّقوطي المرسي: "كان طِرّفًا [؟!](٢٥) في المعرفة بالفنون القديمة، المنطق والهندسة والعـدد والموسـيـقـا [كـذا] والطب ..."(٢٦). ولعل نص ابن الخطيب هنا له أهمـيـة خـاصـة، إذ إنه مـعـاصـر ابن خلدون وابن ثقافته.

وثمّة نص لابن الأبّار (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، يقول فيه عند ترجمته لعلي بن سليمـان الزهراوي: "وكـان عـالمًا بالهندسة والعـدد، غلب عليـه علم ذلك. وشـارك في فنونٍ منهـا: الطب"(٢٧).

(٢٥) هكذا في الأصل، وجـاء عند ابن حـجـر العـسـقـلاني: "قـال ابن الخطيب: كـان عـارفـاً بالفنون القـديمة ...". وهو الأَوْلَى، راجع: ابن حـجـر العـسـقـلاني، أحـمـد بن علي، **الدرر الكامنة في أعـيـان المائة الثـامنة**، بيـروت: دار الجيل (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ٣/ ٣٧٤-٣٧٥. أمـا معنى ما ورد في الأصل فقد جاء في اللسان: "ورجل طِرِّفٌ ومُتَطَرِّفٌ ومُسْتَطْرِفٌ: لا يثبتُ على أمر"، ابن منظور، ٢١٥/٩ (طَرف). ورُجِّحَ ما ورد عنَد ابن حجر لأنه أليق بالمدح.

(٢٦) ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة: مكتبة الخانجي (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)، ٣/ ٦٧-٦٨.

(٢٧) ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق: بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي (٢٠١١م)، ٣/ ٣٢٢.

أما في المشرق، فنذكر مثلاً تقسيم الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، لكتابه (القانون في الطب): "الفن الأول من الكتاب الأول"(٢٨)، و"الفن الثاني: في ذكر الأمراض والأسباب والأعراض الكلية..."(٢٩)، وهكذا باقي الكتاب.

ونجد في مقدمة (الفهرست) لأبي الفرج النديم (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) التالي: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها ..."(٣٠). غني عن الذكر أن التاريخ كان أحد تلك العلوم(٣١). وقد قسم النديم كتابه إلى مقالات، تحت كل مقالة تقع عدد من الفنون، أي الموضوعات.

ويرد عند أبي عبدالله الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، في كتابه (مفاتيح العلوم) بعدما أتم المقالة الأولى - ومن ضمنها الأخبار (التاريخ) - قوله : "آخر المقالة الأولى من كتاب مفاتيح العلوم، في العلوم العربية"(٣٢).

ويرد كذلك عند ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، في ترجمته لكمال الدين موسى بن يونس، ما يلي: "وكان يدري فن الحكمة:

(٢٨) ابن سينا، الحسين بن عبدالله، **القانون في الطب**، د.م.: المطبعة العامرة (١٢٩٤هـ)، ٢/١.

(٢٩) السابق، ص٧٣.

(٣٠) النديم، محمد بن إسحاق، **الفهرست**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ٣/١.

(٣١) السابق، ٢٧٨/١.

(٣٢) الخوارزمي، محمد بن أحمد، **مفاتيح العلوم**، تحقيق: فان فلوتن، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة (٢٠٠٤م)، ص ١٣٠.

المنطق والطبيعي والإلهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي..."(٣٣).

وقد نجد اللفظين مترادفين - كما ذُكر من قبل - كما هي الحال عند السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م). فقد قال في مقدمة كتابه (الإعلان بالتوبيخ): "فلما كان الاشتغال بفن التاريخ للعلماء من أجلّ القربات بل من العلوم الواجبات..."(٣٤).

ولو أردنا تتبع الأمثلة في المصادر فسنحتاج إلى مجلد كبير، إنما فيما ورد أعلاه كفاية للتدليل على أن معنى اللفظ لم يتغير عما أوردته المعاجم اللغوية.

خاتمة:

إن ما سبق كفيل بأن يجعلنا نهمل صيغة السؤال: "هل التاريخ علم أم فن؟"؛ لأنها تصبح بمعنى: "هل التاريخ هو المعرفة؟ أم فرع منها؟" ولا أظن أن أحدًا ممن طرحه يقصد هذا. إذن، ومن تتبُّع الخلاف الناشئ في هذه القضية، في لغتنا العربية وفي اللغات الأخرى، يصبح السؤال المناسب هو: "هل التاريخ علم نظري أم تطبيقي؟"؛ فهكذا يصبح السؤال ملامسًا لصلب موضع النزاع بين الدارسين. وهي قضية أخرى ليس هذا محل مناقشتها. ولعل ذلك يكون مستقبلاً بإذنه تعالى.

(٣٣) ابن خلكان، أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر (د. ت)، ٣١٢/٥.

(٣٤) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، د.م: مكتبة القدسي (١٣٤٩هـ)، ص٥.